

اليثيم

قضى أهل مكة أيامهم فرحين مبتهجين، يلموهم الفخر، ويزدهيم النصر، ويتحدثون بحديث الفيل إذا أضحوا، ويتذكرون انهزام الحبشة إذا أمسوا، حتى كاد يشغلهم ذلك عن تجارتهم ويصرفهم عن مرافقهم. وتسامعت الرعب بهذه الآية الكبرى التي أظهر الله بها كرامة هذا البيت، ورفع الله بها مكانة الذين يقومون حوله من قريش! فأزاد العرب لقريش حبا وإكراما، وأخذت تستوثق الأمور لأهل مكة على من دنا منهم أو نأى عنهم في تهامة ونجد والحجاز. ولكن شيخا من قريش لم يشغله فخر، ولم يزهده نصر، ولم تصرفه أحاديث الناس من حوله عن حديث نفسه المتصل وحزمها المقيم! وهو عبد المطلب بن هاشم.

ولكن امرأة من قريش لم يأخذها عجب ولم يملكها تيه، ولم تشارك نساء قريش فيما كن يتخذون من زينة، وينصرفن إليه من لذات الحياة، إنما كانت تؤثر العزلة وترغب في الخلوة إلى نفسها، تتحدث إليها وتسمع منها، لا تجد في هذا الحديث حزنا صريحا ولا سرورا صريحا، وإنما هو شيء بين بين: فيه راحة من لذع اليأس، وفيه صارف عن نشوة الأمل وهي آمنة بنت وهب.

كان الشيخ يذكر ابنه فيشغله الحزن الممض العميق عما كانت فيه قريش من بهجة وسرور، ومن غبطة وحبور. وكان الشيخ في قصة الفيل وانصراف المغيرين عن مكة، ثم يرى فخر قريش ومدحها واستعلاءها على العرب، فيبتسم في نفسه ساخرا منها عاطفا عليها. فلم تصنع قريش شيئا إلا أنها لاذت بشغاف الجبال، وفرت إلى حيث كانت تهيم الوحوش، وخلت بين طاغية الحبشة وبين البيت. فلم تزدده إدا، ولكن الله رده، ولم تحطمه إدا ولكن الله حطمه. وهي على ذلك تفاخر وتكاثر، وهي على ذلك تستكبر وتستعلى. وكذلك الإنسان يغيره بنفسه الغرور، فيضيف إليها ما لم تفعل. ويحمل عليها ما لم تأت من الأمر.

كان الشيخ يسخر في نفسه من قريش، ويعطف في نفسه على قريش، يلتمس لها المعاذير في هذا الضعف الذي يصيب الناس فيخدعهم عن أنفسهم ويكبرهم في أعينهم، ويخيل إليهم أنهم شيء، وما هم بشيء أمام هذه القوة القاهرة التي تغلب ولا تغلب، والتي تقهر ولا تقهر، والتي لا تريد إلا بلغت ما تريد. هذه القوة التي أخرجت من البحر طيرا لم يرها الناس من قبل، فسأطها على جيش لم ير الناس مثله من قبل، فما هي إلا أن حطقت فوقه ساعة من نهار حتى انهزم وانحطم، وأصبح كعصف مأكول، وسلم البيت من عادية المعتدي، وأمن البيت من طغيان الطاغية.

هذه القوة التي ظنَّ هو أنه قد استنفذ منها ابنه فحماء من الموت، وضمن له حياة كحياة الرجال: فيها ما فى حياة الرجال من سعادة وشقاء، ومن راحة وتعب، ومن جدّ وسعى، ومن اضطراب بين اليمن والشام، ومن استقرار فى الظواهر والبطحاء. ألم يُصارع الموتَ عن ابنه صراعاً! ألم يشتر ابنه من القضاء شراءً! فما هذا الجهاد بالقداح بينه وبين القضاء المسلط! يفادى ابنه بالإبل فيشتط عليه القضاء ولا يرضى حتى يبلغ المائة. فيمَّ كان انتصاره، وفيمَّ كان ابتهاج بنى هاشم؟ وفيمَّ كان ابتهاج قريش بانتصار الحياة على الموت، وإفلات الشباب من مُدية المضحى؟

وكان الشيخ يضحك فى نفسه ضحكاً حزيناً يوشك أن يكون بأساً مهلكاً وثورةً جامحةً، لولا أنه كان ذا قلب تعلم كيف يطمئن للأحداث ويضعن للخطوب، وَيَصبر على النائبات. كان الشيخ يضحك فى نفسه ضحكاً حزيناً حين كان يفكر فى غرور قريش، وتقديرها أن الله قد ردَّ طاغية الحبشة، وأرسل عليه وعلى جيشه ما أرسل من الطير الأبايل، تكريماً لها وإيثاراً؛ وحين كان يفكر فى غروره هو حين كان يقدر أن الله قد أنقذ ابنه من مُديته وفداه بمائة من الإبل إيثاراً له بالعافية، واختصاصاً له بالكرامة. كلا! كلا! لم يُهزم الفيل وأصحاب الفيل إكراماً لقريش، وإنما هى آية أجراها الله لأمر يعلمه هو، ولا يعلم الناس منه شيئاً. ولم ينفذ الله عبد الله من الموت ويفاده بمائه من الإبل إكراماً له أو إكراماً لأبيه، وإنما أنقذه من الموت وفداه بالإبل لأمر يريده هو، ولا يعلم الناس منه شيئاً. وإلا ففيم نجا هذا الفتى من الموت ليموت بعد ذلك بقليل! أليس غريباً أن ينجو من الموت فيتخذ له زوجاً لا يقيم معها إلا وقتاً قصيراً، ثم يفارقها كما يفارق الناس أزواجهم ليعود عليها كما يعود الناس إلى أزواجهم، ولكن رفاقه يعودون وهو لا يعود، إنما يتخلف فى يثرب ليموت عند أخواله من بنى النجار؛ وقد عرفت زوجه بعد أن ارتحل عنها أنه قد حملها أمانةً ما زالت تحملها فى جوانحها، حتى إذا جاء أمر الله أدت هذه الأمانة. ومن يدري! لعل عبد الله لم يوجد إلا ليودع هذه الأمانة عند زوجه! ومن يدري! لعل أمانة لم توجد إلا لتودى هذه الأمانة إلى الناس.

وكان الشيخ إذا فكَّر فى هذا كله، لم يملك نفسه أن يرى ابنه شديد النشاط، عظيم القوة، رائع الشباب، بارع الجمال، يستقبل السفر بأمل لا حد له؛ ثم يراه نحيلاً، هزيلاً، شاحباً، متهاكماً، محزوناً، يمرض على فراشه عند بنى النجار؛ ثم يراه وقد دنا منه الموت مُكابراً مُكاثراً، فاستله من الحياة أو استل الحياة منه، كأنما يثار لنفسه من تلك الهزيمة التى أصابته يوم الفداء. فكان الشيخ يستسلم لحزن عميق لا يُخرجه منه إلا اضطرابُ الناس من حوله، وإلحاح الناس عليه، وفيهم أبناؤه وبناته، فيما كان يشغلهم من الأمور.

وكانت آمنة ترى نساء قريش ونساء بنى هاشم من حولها، يبسمن للأيام وبيتهجن للحياة، فيعجبها ذلك منهن، ولا يداخلها حسدٌ لهن أو مَيْلٌ إلى مشاركتهن. كانت تحس إحساساً قوياً، ولكنه غامض، بأن الأيام قد وفه حظها من الغبطة وقسطها من النعيم في ذلك الوقت القصير، الذى قضته مع زوجها منذ لقيته بعد الفداء إلى الرحيل. وكانت تريد أن تسعد بالتفكير فى هذا الجنين الذى تحسه يضطرب فى أحشائها، ولكنها لا تلبث أن تذكر زوجها، وأنه قد حُرِم السعادة بهذه النعمة، ففكره أن تستأثر من دونه بالخير، وتتحدث إلى نفسه بأن الاستمتاع بالأبناء والبنات لذة لا يستبدُّ بها الفرد، وإنما هى مشتركة بين اثنين، فإذا ذهب أحدهما نُقلت على الآخر وشق احتمالها عليه وكانت له مصدر ألم وحُزن. ولكنها مع ذلك لم تكن تجد هذا الألم الممض الذى كانت تقدره وتتظره، كأنما خُلقت نفسها مُدعنةً، وكأنما فُطر قلبها على الرضا، وكأنما استيقنت أن حياة الأحياء عبء يجب أن يحمل، رضى الناس أو سخطوا، وأن احتماله مع الرضا والاطمئنان خير من السخط الذى لا يجدى، والثورة التى لا تفيد.

على أن الأيام لم تكن تتقدم بآمنة نحو ذلك اليوم المشهود، حتى يغمرها شىء يشبه نسيان النفس والانصراف عن الشعور الواضح بالحياة والتفكير الجلى فيها. وكانت تُنفق نهارها ذاهلةً أو كالذاهلة، وتنفق ليلها فى نوم هادئٍ حلو الأحلام. وما أكثر ما كان يزورها من حُلم؛ وما أكثر ما كان يُلم بها من طيف! وما أكثر ما كان يُلقى إليها من حديث! حتى إذا كانت ذات ليلة تنهياً للخروج من ذهول النهار والدخول فى هدوء الليل، أحست بعض ما يحس النساء حتى يدنو منهن المخاض.

هنالك دعت إليها من حضرها من نساء بنى هاشم، فأسرعن إليها وقضين معها ليلة لا كالليلالي، أنكرن فهيا كل شىء وأعجن فيها بكل شىء. أنكرن حتى أنفسهن؛ وفقد رأين ما لم ير أحد، وسمعن ما لم يسمع أحد، وأحسسن ما لم يحس أحد. ولم كن آمنة أقلهن إنكاراً وإكباراً وإعجاباً؛ فقد كانت ترى، وهى يقظةٌ غير نائمة، أن نوراً يبعث منها فيملاً الأرض من حولها ويزيل الحجب عن عينها. وكانت تنظر فترى قصور بُصرى فى أطراف الشام. وكانت تنظر فترى أعناق الإبل تَرْدَى^(١) فى أقصى الصحراء. وكانت لا تتحدث إلى من حولها بما ترى مخافة أن ينكرن ما تقول، وأن يظننَّ بها الظنون. وكانت هذه من صاحباتها تنظر فإذا نجوم السماء تدنو من الأرض وتمد إليها أشعةً قويةً نقيّةً باهرةً ساحرة، وإنها لتدنو وتدنو حتى يخيل إلى الرائية أنها توشك أن تمسها وتقع عليها.

(١) تردي: تسرع بين العدو والمشى.

وكانت هي الأخرى من صاحباتها ترى ظلمةً مظلمةً قائمةً، وتأخذها رعدةٌ قويةٌ ناهكةً، ويُلِمُّ بها شيءٌ كأنه النوم، تسمع أثناءه صوتًا مهيبًا رهيبًا يسأل: إلى أين ذهبتَ به؟ فيجيبه صوتٌ مهيبٌ رهيبٌ: إلى المشرق. ثم ينجلي عنها ما ألم بها فتفريق. ثم يعاودها ما كانت فيه، فإذا ظلمةٌ قائمةٌ، وإذا رعدةٌ قوميةٌ ناهكةٌ، وإذا غاشٍ يغشاها كأنه النوم، وإذا هي تسمع الصوت المهيب الرهيب يسأل: أين ذهبتَ به؟ فيجيبه صوتٌ مهيبٌ رهيبٌ: إلى المغرب. ثم ينجلي عنها ما هي فيه فتفريق.

وكذلك لم تدنُ السماء من الأرض كما دنت في هذه الليلة. وكذلك لم يزر الناس من الأعاجيب كما رأى هؤلاء النساء في هذه الليلة. ولم تكن آمنة على هذه كله تجد ألمًا قليلاً أو كثيرًا، إنما كُشف عنها كل حجاب، وُرفِع عنها كل غشاء، وُخِّلَى بينها وبين عالم من الجمال الذى يُرى ومن الجمال الذى يُسمع لا عهد للناس بمثله. ثم ترى ويرى صاحباتها كأن شهابًا انبعثت منها فملاً الأرض من حولها نورًا يبهر الأبصار، ثم ترى فإذا ابنتها قد مسَّ الأرض يتقيها بيديه رافعًا رأسه إلى السماء مُحدِّقًا ببصره إليها كأنما يلتمس عندها شيئًا. ثم تسرع صاحباتها إليه وإليها ليؤدبن له ولها ما تحتاج إليه الأم حين تمنح الحياة، وما يحتاج إليه الابن حين يستقبل الحياة، فإذا هي لا تحتاج إلى شيء، وإذا هو لا يحتاج إلى شيء، وإذا هن يتناولن أجمل صبي، وأروع صبي، وأبرع صبي، وإذا قلوبهن قد امتلأت بأن الأرض قد استقبلت وليدًا لا كالولدان.

ثم يشرق الفجر وتبسيط الشمس رداءها النقى على بطحاء مكة وما يحيط بها من الجبال؛ ويرتفع الضحى، ويضرب الناس في أمورهم وقد قضوا ليلاً جاهلاً غافلاً، لم يشعروا فيه بشيء، كأن لم يكن فيه شيء. ولو قد كُشف عنهم الغطاء، ولو قد أزيلت عن قبولهم الحجب لرأوا وسمعوا. ولكن الله قد جعل لكل شيء قدرًا؛ فهو يظهر آياته لمن يشاء، ويخفي آياته على من يشاء. وعبد المطلب جالس في الجحر وحوله أبناؤه وجماعة من قريش، قد أخذوا فيما كانوا يأخذون فيه من حديث. وهو يسمع إليهم بأذنيه، ويُعرض عنهم بنفسه، يفكر في فقيدته الذى لا يستطيع أن ينساه. وإنه لفي ذلك وإذا البشير يُقبل عليه مسرعًا، حتى إذا انتهى إليه حيَّاه وقال: لقد وُلِد لك غلام، فلمَّ فانظر إليه؛ فلا يسمع هذه البشرى حتى يُحس أن الله قد أخلفه من فقيدته ورفق به في مُصابه، وادخر له عزاءً عن محنته. فيسأل: أهو ابنُ عبد الله؟ فيجيبه البشير نعم. فينهض مسرعًا وينهض معه بنوه، ويمضون لا يلوون على شيء حتى يبلغوا بيتَ آمنة. فإذا دخل الشيخ ورأى الغلام أحس كأن الله قد أنزل على قلبه السكينة وجلا عن قلبه الحزن، ورده إلى غبطةٍ وسرورٍ بعدَ عهده بهما.

ثم يسمع حديث النساء فلا يُنكر منه شيئاً، كأنما كان ينتظره، وكأنما كان منه على ميعاد. ثم يرفع الصبي إليه فيقلبه ويقول: لأسمينه محمداً. قالت آمنة: لقد أتاني في اليوم لأمرني أن أسميه أحمد. قال عبد المطلب: فهو محمد وهو أحمد، وما أرى إلا أنهما بعضُ أسمائه.

قلت لمحدثي: فقد زعموا أن عبد المطلب خرج بعد ذلك فنحر الإبل لأهل مكة، ونحر الإبل لأهل الشَّعاب، ونحر الإبل على رؤوس الجبال، ليُطعم الناس وليُطعم الوحش. قال: وهل كان عبد المطلب إلا نعمةً للناس ونقمةً على الإبل!

ولكن عبد المطلب لم يفرغ من شأنه ذاك، ولم يعدْ إلى المسجد مع العصر، حتى رأى أنديّة قريش مُجمعةً فيه، تلهج كلها بحديث غريب ونبأ طريف أذاعه في مكة رجلٌ من أهل الظواهر، فشغل به الناس وتناقلوه. وكان هذا الرجل طلبيةً أهل المسجد، ينتقل بحديثه من ندى إلى ندى، فلا يكاد يُتم حديثه إلى قوم حتى يدعوه إليهم قومٌ آخرون ليسمعوا منه ويسألوه. وكان يستحبُ لمن يدعوه، ولا يزهّد في أن يُعيد قصته مرّةً ومرّةً، وكأنه قد أحس لنفسه خطراً، وكأنه قد رأى نفسه مطلوباً بعد أن لم يكن من قبل إلا طالباً، وكأنه قد كبر في نفسه، فكان يقول ويُطيلُ في القول، وكان يفصلُ ويُغرق في التفصيل. وكانت أفناء قريش تسمع له، فهمنها من يُعجبُ، ومنها من يرتاع، ومنها من يلقي الحديث بالإغراق في الضحك، ومنها من يلقي الحديث بهز الرؤوس.

وكان هذا الرجل يقص قصصه فيقول: ما كنت أعلم أن الليل أسراراً ليست للنهار. وكانت أعلم أن للصحراء أنباء ليست للمدن والأرض العامرة. وما كنتُ أحسبُ أن في هذا الهواء الذى نتنسمه وفي هذا الفضاء الذى يحيط بنا أرواحاً تتاجى، وأحياء تتجاذب الحديث، حتى رأيت ما رأيت، وسمعتُ ما سمعت، فتبينت أن حياتنا غرور، وأن علمنا جهل، وأن أحاديثنا لهوٌ وهراء. والناس يتعجلونه فيقولون له: هات ما عندك من النبأ، حتى إذا فرغت من قصته فُقل ما شئت، وهو يقول: لقد جنّنى الليل، وإنى لفى طريق من الطائف إلى مكة فلا أحفل بذلك ولا آبه له، ولا أفكر فى أن آوى إلى حى من هذه الأحياء التى تنتشر بيوتها فى الطريق لأنتظر مشرقَ الشمس، ولكننى أمضى أمامى لا ألقى على شىء ولا أرهبُ شيئاً، وماذا أرهب والطريق آمنة واضحة يسلكها الناس إذا أصحابوا، ويسلكونها إذا أمسوا، يسيرون فيها مع ضوء النهار، ويسيرون فيها مع ظلمة الليل؛ قد عرفوها فهم لا يحتاجون إلى مرشد ولا دليل. فأمضى أمامى مُجدّاً فى السرى، أريد أن أفجأ أهلى مع الصبح. وإنى لفى بعض الطريق وقد سكن من حولى كل شىء حتى لا أسمع إلا أخفاف مطيتى تمس الأرض مساً رقيقاً، وإلا هذه الأثأت التى تُرسلها المطايا إذا جهدها السير وحنّت إلى الراحة، وإلا ما كنت أناجى نفسى به من حديث أهلى إذا طلعت عليهم مع ضوء الشمس. وكان ضوء القمر قد انبسط على الفلاة هادئاً نقيّاً فملاً نفسى أمناً ودعةً وهدوءاً.

وإني لفي ذلك، وإذا غمغمة تصل إلى من بعيد، فلا أحفل بها ولا ألقى إليها بالاً، وإنما أمضى فيما أنا فيه من الاستمتاع بذلة هذا السرى، ومس أخفاف مطيتي للأرض، وحنينها إلى ما بَعَدَ عهدُها به من الراحة، وأحاديث نفسي عن فارقت، في الطائف وعن سألقي في مكة. ولكن الغمغمة تدنو مني أو أنا أدنو منها، وإذا هي تشتد شيئاً فشيئاً، وإذا أصواتها تمتاز وتستبين، وإذا أنا أسمع أحاديث قوم يتهامسون، وإذا أنا أنظر فلا أرى أحداً. والقمر مع ذلك مشرق مضىء، والفلاة مع ذلك مبسوطة لا عوج فيها ولا ارتفاع، والحديث مع ذلك من حولى واضح يملأ الهواء، وقلبي مع ذلك يضطرب ويمشى في صدرى رعباً. وأنا أذهب بمطيتي إلى أمام وأرجع بها إلى وراء، وأذهب بها عن يمين وأذهب بها عن شمال، وارفع بصرى إلى السماء وأخفض بصرى إلى الأرض، فلا أرى شيئاً ولا أتبين شيئاً إلا جمال هذا الضوء الرائع يغشى الأرض برداء نقي رقيق. وهذه النجوم التي لا تُحصى وقد تألقت في السماء كأنها المصابيح، وانطلقت في طريقها مسرعةً كأنها تستبق، وهذه الأحاديث الواضحة تتحدث بها جماعات لا أراها، ولكنها لا تستقر، إنما يمضى بعضها إثر بعض. وإني لأسمع قائلاً يقول: "انظروا إلى السماء، فما أرى أنها كعهدنا بها من قبل. إن نجومها لتتألق في قوة لم نرها قط. إنها لتستبق في سرعة لم نرها قط. إنها لتدنو من الأرض حتى إن نارها لتوشك أن تحرقنا. إن التصعيد في السماء لعسير. وفيم نَصْعَدُ إلى السماء وإن السماء لتهبط إلينا! إن البقاء على الأرض لعسير. وأتى لنا الثبات بهذا الضوء الذي لا يخفى عليه شيء، حتى أشباحنا الخفية التي لا تراها العيون! النجاء النجاء! إن للغيب لعجبا، وإن في الأرض لحدثاً، وإن الزمان ليستدير، وأنا لا ندرى أشرُّ أريد بالناس أم خيراً!".

وإني لأسمع ما أسمع وأرى ما أرى، فيبهزني ما أسمع ويسحرنى ما أرى، وأشغل به حتى عن أن أسأل نفسي، أين أكون وما تكون هذه الأصوات. ولكنى أحس أصواتاً أخرى كأنها تُهيب بأهل تلك الأصوات التي كنتُ أسمعها قائلة: النجاء النجاء! ولكن إلى أين؟! إنكم لتفرون من مكة كأن شيئاً أزعجكم عنها وقد كنتم فيها آمينين، وقد كنا نَفِرُ إليكم لأن شيئاً أزعجنا عن دورنا، وأخرجنا من مأمنا، واضطربنا إلى أن نهيم في الأرض، لا ندرى ما هو، ولا ندرى من أين جاء، إنا لتنتسامع من أطراف الأرض بأن حدثاً قد حدث، وبأن كائناً قد كان. إنا لتنتسامع بأن إيوان كسرى قد اضطرب ومادت به الأرض، فسقطت شُرُفاته وتهدم بنيانه، وإذا أصوات أخرى تصبح منتشرة في الفضاء: وإنا لتنتسامع بأن نار الفرس قد حَبَّتْ فجأة لأول مرة منذ ألف سنة. وإذا أصوات أخرى تصيح: أنا لتنتسامع بأن بحيرة ساوة قد جَفَّتْ، وما عهدناها إلا غزيرة جمَّة الماء. وإذا هذه الأصوات كلها تملأ الأرض، رقيقة خفيفة، خائفة قَلِقَة: النجاء! النجاء! إن السماء لخيراً،

وإن الأرض لتستقبل يوماً لم تستقبله من قبل، وإن لهذا اليوم فى حياة الأرض لشأناً لا ندرى
أخيراً هو أم شرّاً! النجاء النجاء!

وقد فقدت صوابى وأضللت عقلى، فلا أحس شيئاً، ولا أرى شيئاً، ولا أسمع شيئاً،
كأنما انتزعتُ من الحياة انتزاعاً. ثم يمسى برد السحر فأفئق وكأنما تُبْتُ إلى نفسى من سفر
بعيد. وأنظر حولى فأرى أصابع الفجر تمتد إلى الأشياء كأنما تريد أن تلمسها، وأرى الليل
ينحسر عن الأشياء كأنما يودّعها محزوناً، وأرى النجوم تنهزم فى السماء كأنما تخاف جيشاً
منتصراً، وأرى ناقتى مذعنة لحكم السرى تمضى أمامها كأن شيئاً لم يكن من حولها. وأبلغ أهلى
مع الصبح، فيستقبلوننى دَهْشِينَ كما كنت أقدّر، ولكنى لا أستمتع بهذا الدهش كما كنت أريد.

ويتفرّق الناس عن هذا الرجل وقد سمعوا منه، وإن بعضهم ليسأل بعضاً: ماذا يقول
وماذا رأى؟ وإن بعضهم ليقو لبعض: لقد أخذته النوم فعبثت به الأحلام، وإن بعضهم ليقول
لبعض: لقد مرّ بجماعة من جنّ الصحراء كانوا يسمّرون.

ويسمع عبد المطلب فتثور فى نفسه خواطر لا ينكرها ولا يعرفها، ولكنه لا يطيل الوقوف
عندها؛ لأنه مشغول عنها بمقدم حفيده اليتيم.